الْغَدِيرُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

قِرَاءَةٌ فِي آرَاءِ الْمُفَسِّرِين

أ.د. خليل خلف بشير

جامعة البصرة / كلية الآداب

Al-Ghadeer in the Noble Quran A reading through interpreters opinions

Assistant Prof. Khalel Khalaf Basheer

University of Basrah - college of Literature

dr.khalel.am@gmail.com

ملخص البحث

هذا بحث تناولتُ فيه قضية الغدير من رؤية القرآن مستنطقاً آراء المفسرين من الفريقين مركِّزاً على ثلاث آيات اختصت بهذه القضية هي (آية التبليغ، وآية إكمال الدين، وآية السائل) مناقشاً آراءهم على أنَّها محاولة متواضعة بذلتُ فيها جهدي، وأعملتُ فكري لتكون زاداً لنا ومعيناً في الدنيا والآخرة، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].

Abstract

In this research I discussed the event of Al-Ghadeer from a Quranic vision, interrogating the opinions of the commentators of the two doctrine, and focusing on three verses specialised on this matter (the verse of Altabligh/ to deliver 'the message', the verse of Ekmal Aldeen/the faith completion, the verse of Alsa-el/ the questioner), and discussing their opinions.

In the other hand, I did my best to present this humble work and wish to benefit from it in this world and hereafter, {And my success is not but through Allah. Upon Him I have relied, and to Him I return}.

(١) سورة هود، الآية: ٨٨.

آيات الغدير

في القرآن الكريم ثلاث آيات تتعلق ببيعة الغدير، وهذه الآيات تحيط بالبيعة وموضوعها إحاطة شاملة وتنبئ عن الأهميَّة العظمى ليوم الغدير وما جرى فيه، وتضع المسؤوليَّة على عاتق المسلمين لحفظ هذا اليوم وما جرى فيه ليس لأجل الأشخاص المعنيين في تلك البيعة بقدر ما هي لأجل المسلمين أنفسهم.

إنّ المولى سبحانه شاء (أن يبقى حديث الغدير غضاً طرياً لا يبليه الملوان، ولا يأتي على جدَّته مرُّ الحقب والأعوام، فأنزل حوله آيات ناصعة البيان، ترتله الأُمَّة صباحاً ومساءً، فكأنَّه سبحانه في كلِّ ترتيلة لأيٍّ منها يلفت نظر القارئ، وينكت في قلبه، أو ينقر في أُذنه ما يجب عليه أنْ يدين الله تعالى به في باب خلافته الكبرى)[١].

وسأتناول الآيات الثلاث نصاً وتفسيراً، وربطاً بالحادثة التاريخيَّة بما يثبت علاقتها بيوم الغدير.

١ - آية التبليغ:

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[٢].

أورد السيوطي روايات عدّة في تفسير هذه الآية من ذلك قوله : (... عن أبي سعيد

(١) الغدير، الشيخ الأميني: ٢١٤.

(٢) سورة المائدة، الآية:٦٧.

الخدري قال لمَّا نصب رسول الله ﷺ عليّاً عليه السلام يوم غدير خم فنادى له بالولاية هبط جبريل عليه بهذه الآية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾، عن أبي هريرة قال: لمَّا كان يوم غدير خم وهو يوم ثماني عشر من ذي الحجة قال النبيُّ ﷺ «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه**»، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾)[1].

وكذا قوله: (... عن ابن مسعود قال: كنَّا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ (يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل إليك من ربِّك أنَّ علياً مولى المؤمنين وإنْ لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس...)[2].

ولو نظرنا إلى الآية من وجهة لغويَّة لوجدنا أنَّ الآية مبدوءة بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ...﴾ التي لم ترد إلَّا مرتين هما قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3]، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[4]، ولعلَّ هذا الخطاب يختلف عن خطابه للنبيِّ بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ...﴾ التي تكررت كثيراً في القرآن الكريم فالخطاب الأوَّل أهم، إذ يدلُّ على الأهميَّة الفائقة التي تستلزم أنْ يقع الرسول الأكرم مورداً للخطاب الإلهيِّ مباشرة، ثمَّ إنَّ كلمة ﴿بَلِّغْ﴾ التي لم ترد إلَّا

(١) الدر المنثور، السيوطي: ٢/ ٢٥٩.
(٢) م.ن: ٢/ ٢٩٨.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤١.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

في هذا الموضع تدلُّ على خصوصيَّة المضمون الذي تحمله الآية، فقد أُمر الرسولﷺ بتبليغ أمرٍ على درجة من الأهميَّة، بحيث لو قصّر في تبليغه للناس لذهبت أتعاب ثلاث وعشرين سنة، وذلك مصداق قوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[1]، فتبليغه كان ثقيلاً على النبيِّﷺ لخوفه من استنكاف الناس عن قبوله وإيذائهم له، إذ توعَّده الله وهدّده على ترك تبليغه، فإنَّه لا يقال مثل هذا التعبير إلَّا إذا كان الأمر ثقيلاً على من يُراد خطابه؛ لذا عصمه تعالى من الناس بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[2]، على أنَّ مجيء الفعل مشدداً ﴿بَلِّغْ﴾ أبلغ من تعديته بالهمزة (أبلغ)، وقد خاطبه بالرسالة لكونه أنسب الصفات إلى ما تتضمنه الآية من الأمر بالتبليغ لحكم الله النازل، فهو كالبرهان على وجوب تبليغ هذا الأمر الإلهيِّ، فتحمُّل الرسالة يفرض عليه القيام بالتبليغ، ولم يصرّح باسم الذي أُنزل إليه من ربِّه، وإنَّما عبر عنه بالنعت، وإنَّه شيء أُنزل إليه إشعاراً بتعظيمه ودلالة على أنَّه أمر ليس فيه لرسول اللهﷺ صنع، ولا له من أمره شيء، ليكون برهاناً آخر على عدم خيرة منه في كتمانه وتأخير تبليغه، ويكون معذوراً في إظهاره على الناس، وتلويحاً إلى أنَّه مصيبٌ في تفرسه منهم، وتخوفه عليه، وإيماءً إلى أنَّه ممَّا يجب أنْ يظهر من ناحيته وبلسانه وبيانه[3].

فإذا دققنا النظر قليلاً في آية التبليغ نجد ما يأتي:

أ- الآية تطلب من الرسولﷺ أنْ يبلِّغ ما أُنزل إليه من ربّه، هذا مع أنَّه بديهيٌّ جداً أنَّ الرسولﷺ قام بواجبه في التبليغ منذ اليوم الأوَّل للدعوة، فمنذ أنْ سمع قوله تعالى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾[4] قام يدعو إليه تعالى ليله ونهاره ولاقى في سبيل ذلك ما لاقى

(١) ينظر: آيات الولاية في القرآن، مكارم الشيرازي: ١٢-١٣.

(٢) آيات العقائد، إبراهيم الحجازي: ٣١٨.

(٣) ينظر: الميزان، الطباطبائي: ٦/ ٤٩.

(٤) سورة المدثر، الآية: ٢.

حتى قال – بأبي هو وأُمّي –: «**ما أُوذي نبيٌّ مثل ما أوذيت**»[1]، وذلك من الأقارب والأباعد، قريش وثقيف وهوازن وغطفان وقريظة وقينقاع وغيرها من القبائل، وكان المسارع للتبليغ في كلِّ حين، إذن ما هذا الأمر المجدّد في التبليغ؟ هل يحتاج الرسولﷺ، خاتم الرسل وسيدهم، أنْ يؤمر بالتبليغ مجدداً؟ ومتى ذلك؟ بعد أنْ بلّغ جميع الأحكام طَوال ثلاثة وعشرين عاماً من الدعوة ولاسيما في الأعوام العشرة من الهجرة المباركة، التي لخّصها في خطبته العظيمة في حجَّة الوداع قبل أيام قلائل فقط من يوم الغدير، لا بُدَّ أنَّ الخطاب موجّه للرسولﷺ ظاهراً إلَّا أنَّه يعني الذين سيستمعون موضوع التبليغ حقيقة، فكأنَّ الآية تقول إنَّكم على الرغم من معرفتكم بأنَّ محمدَ بنَ عبد اللهﷺ هو الرسول المبلِّغ عن ربِّه، وأنَّه بلّغكم ما أُنزل إليه طَوال السنين الماضية، إلَّا أنَّكم ربما لا ترضون بما سيبلغكم به بعد قليل بحيث ستتهمونه بأنَّه ليس من عند الله، ولذلك أؤكد لكم أنَّه أمر من عند الله شأنه شأن ما نزل من آلاف الآيات قبله.

ب– الشطر الثاني من الآية: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ كلام عجيب حقاً، فهذا الشطر يقول للرسولﷺ: يا محمَّد، وإنْ كنتَ قد بلّغتَ كلَّ ما نزل إليك من ربك فيما مضى، فإنَّه يعدّ لاغياً إنْ لم تبلِّغ هذا الأمر الواحد فحسب.

هل يعقل أنَّ هناك احتمالاً بأنَّ الرسولﷺ الأمين الذي دعا إلى الله سرّاً منذ أنْ أمره ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ ثمَّ صدع بالدعوة جهراً بمجرد أنْ أمره ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[2]، سينكص عن تبليغ هذا الأمر؟ قلنا إنَّهﷺ من المستحيل أنْ يتوقف عن التبليغ عن ربِّه، وهل كانت حياته كلُّها إلَّا وقفاً على الدعوة والتبليغ.

إذن أحد معاني هذا الشطر من الآية هو كما سبق: تنبيه للناس بأنَّ الأمر من الله تعالى وإلَّا لما تضمنه هذا الكلام، ثمَّ ما هو هذا الأمر العظيم الذي تقوم عليه كفّة التبليغ

(١) بحار الأنوار، المجلسي: ٣٩/ ٥٦.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩٤.

كلِّه؟ هنا احتمالان: الأوَّل، يخص قبول الناس أيضاً، أي أنَّ هذا الشطر يقول لهم: يجب أنْ تقبلوا ما سيبلغكم به الرسولﷺ لأنَّكم إنْ لم تقبلوا فكأنَّما لم تقبلوا الإسلام كلَّه؛ الثاني، فهو للفكرة ذاتها، أي أنَّ الأمر الآتي هو ليس فقط من الإسلام في الصميم، وإنَّما هو الضمان لبقاء الرسالة، وبعكسه فإنَّ الرسالة سيّان بلِّغت أَم لم تبلِّغ، ولكن لم لا يكون الاحتمالان واردين؟

ت- الشطر الثالث: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يؤكد ما ذهبنا إليه في شأن الشطرين الأوَّلين من أنَّ حالة الناس النفسية، أو بعضهم من الأكابر على الأقل، ممَّن يُخشى منهم الانقلاب على الأمر وممَّن لهم القدرة والمكانة في الإسلام على تحقيق هذا الانقلاب المحتمل، حالة هؤلاء معروفة، كما يبدو للنبيِّﷺ، وبالطبع عند العليم الخبير، بحيث يقول في هذا الشطر ما يأتي:

١- ينبئ الناس، في يومها وبعد ذلك، بأنَّ الرسولﷺ كان محتاجاً لحماية الله تعالى وعصمته من أعدائه الذين هم في أوساط المسلمين.

٢- يقول لهﷺ إنّه قد عصمه من كيد هؤلاء ومن اتهاماتهم المتوقعة، بأنَّه إنَّما نصّب علياًعليه السلام لأنَّه ابن عمَّه ليس إلَّا، وأنَّ تبليغه سيصل للناس مهما فعل الرافضون له.

٣- يقول للناس إنّه قد عصم رسولهﷺ، بمعنى أنَّكم لن تستطيعوا كتم التبليغ، ولن تستطيعوا أنْ تطفئوا نور الله.

علماء السنّة وآية التبليغ:

على الرغم من أنَّ غالبية علماء السُّنَّة، ولاسيما المعاصرين، يكتمون ما أَنزل الله في شأن أمير المؤمنينعليه السلام في يوم الغدير، إلَّا أنَّ بعض القدماء منهم اعترفوا بنزول الآية في ذلك اليوم السعيد، ونستدلُّ بما ذكره الأميني في موسوعته الكبرى[1]:

(١) ينظر: موسوعة الغدير في الكتاب والسنة والأدب، العلامة الأميني: ١/ ٤٢٤-٤٣٨.

الحُفّاظ أبو جعفر محمَّد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، والحافظ ابن أبي حاتم الحنظلي الرازي (ت ٣٢٧هـ)، والحافظ أبو عبد الله المحاملي (٣٣٠هـ)، والحافظ أبو بكر الفارسي الشيرازي (ت ٤٠٧هـ، ٤١١هـ) والحافظ ابن مردويه (٤١٠هـ)، والحافظ أبو نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، وأبو الحسن الواحدي النيسابوري (٤٦٨هـ)، والحافظ أبو سعيد السجستاني (٤٧٧هـ)، والحافظ أبو القاسم الحاكم الحسكاني، والحافظ أبو القاسم ابن عساكر الشافعي (ت ٥٧١هـ)، وأبو الفتح النطنزي، وأبو عبد الله فخر الدين الرازي الشافعي (ت ٦٠٦هـ)، وأبو سالم النصيبي الشافعي (ت ٦٥٢هـ)، والحافظ عزّ الدين الرسعني الموصلي الحنبلي (٦٦١هـ)، وأبو إسحاق الحموئي (ت ٧٢٢هـ)، والسيد علي الهمداني (ت ٧٨٦هـ)، وبدر الدين العيني الحنفي (ت ٨٥٥هـ)، ونور الدين بن الصباغ المالكي المكي (ت٨٥٥هـ)، ونظام الدين القمي النيسابوري، وكمال الدين الميبدي (ت ٩٠٨هـ)، وجلال الدين السيوطي الشافعي (ت٩١١هـ)، والسيد عبد الوهاب البخاري (ت٩٣٢هـ)، والسيد جمال الدين الشيرازي (ت ١٠٠٠هـ)، ومحمَّد محبوب العالم، وميرزا محمد البدخشاني، والقاضي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، والسيد شهاب الدين الآلوسي الشافعي البغدادي (١٢٧٠هـ)، والشيخ سليمان القندوزي الحنفي (ت١٢٩٣هـ)، والشيخ محمَّد عبده المصري (ت ١٣٢٣هـ)، وغيرهم.

٢- آية إكمال الدين:

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

أجمع الشيعة الإماميَّة على نزول هذه الآية في غدير خمّ فقد ورد أنَّه: لمَّا أخذ رسول الله ﷺ بيد عليِّ بن أبي طالب عليه السلام وقال: «**يا أيُّها الناس، ألست أَولى بالمؤمنين**»؟، قالوا:

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

بلى يا رسول الله، قال: «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه**»، فقال له عمر: بخ بخ يا بن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كلِّ مسلم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1].

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: بُني الإسلام على خمس خصال: على الشهادتين والقرينتين، قيل له: أمَّا الشهادتان فقد عرفناهما، فما القرينتان؟ قال: الصلاة والزكاة، فإنَّه لا يقبل أحدهما إلَّا بالأُخرى، والصيام، وحجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً، وختم ذلك بالولاية، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾**»[2].

ويروى عن أبي سعيد الخدري قوله: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله دعا الناس بغدير خم، فأمر بما كان تحت الشجرة من الشوك فقم، وكان ذلك يوم الخميس، ثمَّ دعا الناس إليه وأخذ بضبع عليِّ بن أبي طالب عليه السلام فرفعها حتى نظرت إلى بياض إبط رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله**»، قال أبو سعيد: فلم ينزل عن المنبر حتى نزلت هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الربّ برسالتي وبولاية عليٍّ من بعدي**»[3].

والسؤال هو: لماذا يئس الكفار من هذا الحلم الذي كان يراودهم؟ والجواب هو أنهم لما فشلوا في حربهم نبيَّ الله صلى الله عليه وآله في حروب وغزوات متتالية انقطع أملهم من هزيمته إلَّا بعد موته، فباتوا يمنّون نفوسهم بموته للانقضاض على دينه بعد أنْ يفقد

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق: ٥٠.

(٢) م.ن: ٥١٨.

(٣) كتاب سليم بن قيس: ٣٥٥. وينظر: مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، محمَّد بن سليمان الكوفي: ١/ ١١٩.

المسلمون الوحي الذي كان يحفظ النبيَّ ودينه، كما ظنوا، إلَّا أنَّ الله تعالى عندما نصّب علياً وأولاده المعصومين عليهم السلام خلفاء لخاتم رسله فإنَّ المسلمين ضمنوا الاستمراريَّة بعد النبيِّ صلى الله عليه وآله، استمراريَّة تطبيق الشريعة وإظهار ما لم يكن موضع ابتلاء على عهده، ومراقبة تطبيقها وعدم الانحراف عنها، لا سيما وهي الشريعة خاتمة، فلا نبيَّ آخر سيأتي ليصحح أيَّ انحراف في أُمَّة الإسلام، بغير هذا التفسير ليس هناك إلَّا التخبط والتحكّم؛ لأنَّه لا يمكن أنْ ييأس الكافرون من المسلمين إلَّا إذا كان للمسلمين حكام عندهم العلم الكافي وعندهم العصمة اللازمة للأمن من الخطأ أو اتباع الهوى، وهذا لم يتوفر إلَّا في أئمة الهدى عليهم السلام الذين عيّنهم الرسول صلى الله عليه وآله يوم الغدير.

وقد آثر التعبير القرآني تقديم كلمة ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ مرتين في سياق الآيتين للدلالة على تعظيم أمر اليوم لاشتماله على خبر عظيم الجدوى، وهو يأس الكافرين من دين المؤمنين، وإكمال الدين وإتمام النعمة، فالآيتان مسوقتان لغرض واحد[1] يتفرع إلى فرعين الَأوَّل: هو تقرير بأنَّ الكفار قد يئسوا من أنْ يستطيعوا تدمير الإسلام ومن ثَمَّ فلم يعد هناك مبرر لخشيتهم على الإسلام، من هذه الجهة، على أنَّ الأمر الإلهي بخشيته سبحانه هو الضمانة الأكيدة لاستمرار النصر الإلهي على الكافرين، والثاني هو إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الله سبحانه بالإسلام لنا ديناً، وهنا أيضاً ليس هناك شيء جديد، غير إمامة عليٍّ وأولاده عليهم السلام، يستدعي أنْ يبشرنا الله تعالى أنَّه به قد أكمل دينه وأتمَّ نعمته ورضي لنا الإسلام ديناً، بل إنَّ قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ ليس يعني سوى أنَّ الإسلام لا يتم إلَّا بإمامة الاثني عشر عليهم السلام، وإلَّا لكان الله تعالى قد رضي لنا الإسلام قبل ذلك، وهذا يؤكد ما تذهب إليه الشيعة الإمامية الاثنا عشريَّة من أنَّ الإمامة أصل من أُصول الدين لأنَّه بهذه الإمامة رضي الله الإسلام ديناً كاملاً، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾،

(١) ينظر: الميزان، السيد الطباطبائي: ٦/ ١٨١-١٨٢.

فكأنَّ الدين كان ناقصاً فتمَّ بإعلان إمامة الاثني عشر عليهم السلام في يوم الغدير السَّعيد.

وللمفسرين رأي في كلمة ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ المتقدِّمة على عاملها ﴿يَئِسَ﴾ و(أكمل) فالرازي يذكر رأيين لهذه الكلمة الأوَّل: استعمال مجازي كما تقول: (كنتُ بالأمس شاباً واليوم أصبحتُ شيخاً)، والآخر: استعمال حقيقي خاص، وهو يوم عرفة من ذي القعدة في حجَّة الوداع في السنة العاشرة للهجرة، قال الرازي: قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ فيه قولان:

الأوَّل: إنَّه ليس المراد هو ذلك اليوم بعينه حتى يقال إنَّهم ما يئسوا قبله بيوم أو يومين، وإنَّما هو كلام خارج على عادة أهل اللسان، معناه لا حاجة بكم الآن إلى مداهنة هؤلاء الكفار لأنَّكم الآن صرتم بحيث لا يطمع أحد من أعدائكم في توهين أمركم، ونظيره قوله: كنت بالأمس شاباً واليوم قد صرت شيخاً، ولا يريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك، ولا باليوم يومك الذي أنت فيه.

والقول الآخر: إنَّ المراد به يوم نزول هذه الآية، وقد نزلت يوم الجمعة وكان يوم عرفة بعد العصر في حجَّة الوداع سنة عشر والنبيُّ صلى الله عليه وآله واقف بعرفات على ناقته العضباء)[1].

والزمخشري يرى أنَّه (لم يُرد به يوماً بعينه وإنَّما أراد به الزمان الحاضر وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية كقولك: كنت بالأمس شاباً وأنت اليوم أشيب، فلا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك ولا باليوم يومك...)[2].

فإذا علمنا أنّ (ال) في اليوم عهدية التي معهودها حاضر ذهنياً أو عقلياً أو مكانياً أو زمانياً فلا بُدَّ أنْ يكون هذا اليوم معهوداً ومشهوداً مشاراً إليه بالبنان، وهو يوم الغدير؛ لذا سمِّي بتسميات عدّة منها: يوم العهد المعهود ويوم الشاهد والمشهود، ويوم تبيان

(١) مفاتيح الغيب، الرازي: ١١/ ١٣٧.

(٢) الكشاف، الزمخشري: ١/ ٥٩٣. وينظر: تفسير البيضاوي: ٢/ ٢٩٣.

العقود عن النفاق والجحود، ويوم البيان عن حقائق الإيمان، ويوم دحر الشيطان، ويوم البرهان، ويوم الفصل الذي كنتم توعدون، يوم الملأ الأعلى الذي أنتم عنه معرضون، ويوم الإرشاد، ويوم محنة العباد، ويوم الدليل على الذواد، ويوم إبداء أحقاد الصدور ومضمرات الأُمور، وغير ذلك[1].

وكذا كان للمفسرين رأي في إكمال الدين نوجزه على النحو الآتي[2]:

١- المراد من الدين القوانين، أي قوانين الإسلام، ولعلَّ هذا يؤيد أنَّ اكتمال رسالة السماء موكول بهذا اليوم المعهود - يوم الغدير -.

٢- المراد من الدين الحج، أي أنَّ الله تعالى قد أكمل حجَّ المسلمين في ذلك اليوم العظيم، بيد أنَّ هذا المعنى يتعارض مع المعنى اللغوي والاصطلاحي للدين الذي يعني مجموعة من العقائد والأعمال والعبادات التي يشكل الحجُّ واحداً منها، وهذا تفسير غير مقبول.

٣- إنَّ إكمال الدين وإتمام النعمة متحقق باليوم الذي نصر الله فيه المسلمين على أعدائهم وخلّصهم من شرِّ هؤلاء الأعداء، وهو رأي غير مقبول؛ لأنَّ جميع أعداء الإسلام من المشركين واليهود والنصارى قد استسلموا قبل السَّنة العاشرة للهجرة إلَّا المنافقين، ولكنْ كيف انهزموا وأصابهم اليأس؟ لذا يبقى السؤال بلا جواب مقنع.

٤- إنّ تفسير علماء الشيعة يجيب عن جميع الأسئلة الواردة، ويلقي بظلاله على مفهوم الآية وأجوائها، إذ إنَّ تفسير واقعة غدير خم ومسألة الولاية وخلافة أمير المؤمنين تعدُّ أفضل تفسير، بل هو التفسير الصحيح لهذه الآية الكريمة؛ لأنَّ آمال المنافقين وأعداء الإسلام قد تبددت وتبدّلت إلى اليأس مع وقوع هذه الحادثة المهمة.

وقد ذكر العلامة الأميني مجموعة من علماء المسلمين ألمعوا إلى أنَّ آية إكمال الدين

(١) ينظر: بحار الأنوار: ٣٧/ ١٦٤.

(٢) ينظر: آيات الولاية في القرآن: ٣٧-٣٩.

من الآيات النازلة يوم الغدير في أمير المؤمنين عليه السلام، ومنهم الحافظ أبو جعفر محمَّد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، والحافظ ابن مردويه الأصفهاني (ت ٤١٠هـ)، والحافظ أبو نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، والحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، والحافظ أبو سعيد السجستاني (ت ٤٧٧هـ)، وأبو الحسن بن المغازلي الشافعي (ت ٤٨٣هـ)، والحافظ أبو القاسم الحاكم الحسكاني، والحافظ أبو القاسم ابن عساكر الشافعي الدمشقي (ت ٥٧١هـ)، وأخطب الخطباء الخوارزمي (ت ٥٦٨هـ)، وأبو الفتح النطنزي، وأبو حامد سعد الدين الصالحاني (ت ٦١٢هـ)، وغيرهم[(١)].

الآية الثالثة: آية السائل

قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾[(٢)].

أجمعت الشيعة، في هذه الآية أيضاً، ومعهم عدد من علماء السُّنَّة نحو الذين ذكرناهم في ما تقدَّم فضلاً عن أبي عبيد الهروي (ت ٢٢٣هـ أو ٢٢٤هـ)، وأبي بكر النقاش الموصلي البغدادي (ت ٣٥١هـ)، وأبي بكر يحيى القرطبي (٥٦٧هـ)، وسبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ)، وشهاب الدين أحمد الدولت آبادي (ت ٨٤٩هـ)، والسيد نور الدين السمهودي الشافعي (ت ٩١١هـ)، وشمس الدين الشربيني القاهري الشافعي (ت٩٧٧هـ)، وأبي عبد الله الزرقاني المالكي (١١٢٢هـ)، والسيد محمَّد بن إسماعيل اليماني (ت ١١٨٢هـ)، وغيرهم[(٣)] أنّ هذه الآية من الآيات النازلة يوم الغدير في أمير المؤمنين عليه السلام، وقد ارتبطت بحادثة وقعت في هذا اليوم العظيم مفادها أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لَمَّا كان بغدير خم، نادى بالناس فاجتمعوا، فأخذ بيد عليٍّ عليه السلام فقال: «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه**».

(١) ينظر: موسوعة الغدير في الكتاب والسَّنة والأدب: ١/ ٤٤٧-٤٥٩.

(٢) سورة المعارج، الآيات: ١-٣.

(٣) ينظر: موسوعة الغدير في الكتاب والسنة والأدب: ١/ ٤٦٠-٤٧١.

فشاع ذلك وطار في البلاد، فبلغ ذلك الحرث بن النعمان الفهري فأتى رسول الله ﷺ على ناقة له حتى أتى الأبطح، فنزل عن ناقته وأناخها وعقلها، ثمَّ أتى النبيَّ ﷺ وهو في ملأ من أصحابه فقال: يا محمَّد أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّك رسول الله فقبلناه منك، وأمرتنا أن نصلي خمساً فقبلناه منك، وأمرتنا بالزكاة فقبلنا، وأمرتنا بالحج فقبلنا، وأمرتنا أن نصوم شهراً فقبلنا، ثمَّ لم ترضَ بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمِّك ففضَّلته علينا وقلت: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، فهذا شيء منك أَم من الله تعالى؟ فقال: «**والذي لا إله إلا هو هذا من الله**»، فولَّى الحرث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول: اللهم إنْ كان ما يقوله حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم، فما وصل إليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره فقتله، وأنزل الله سبحانه: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾)[1].

واختلف المفسرون في شخصية الرجل ما بين جابر بن النضر بن الحارث بن كلدة القرشي والحارث بن النعمان الفهري أو النعمان بن الحارث الفهري، ولكنَّهم أجمعوا على مساءلته الرسول ﷺ وعلى تحدّيه إياه بقوله: (اللهم إنْ كان هذا هو الحقُّ من عندك فأمطر.. إلخ)، وبأنَّه لم يصل دابته حتى رُمي بحجر فسقط على رأسه فقتله[2].

ويرى الطباطبائي أنَّ سياق سورة المعارج سياق يوم القيامة، إذ وصفت السورة ما أَعدَّ الله تعالى فيه من أليم العذاب للكافرين، ثمَّ يعرّج على سبب نزول الآيات الثلاث الأُولى في قول القائل: (اللهم إنْ كان هذا هو الحقُّ من عندك فأمطر.. إلخ)، ثمَّ يضيف إلى أنَّ السؤال هنا بمعنى الطلب والدعاء؛ ولذا عُدِّي بالباء[3] كما في قوله تعالى:

(١) تفسير الثعلبي، الثعلبي: ١٠/ ٣٥.

(٢) تفسير مقاتل، مقاتل بن سليمان: ٣/ ٣٩٧. وجامع البيان، الطبري: ٩/ ٣٠٧. وتفسير نور الثقلين، الحويزي: ٥/ ٤١١. والميزان، السيد الطباطبائي: ٢٠/ ١٢. والأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي: ١٩/ ٧.

(٣) الميزان، السيد الطباطبائي: ٢٠/ ٥-٧.

﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾[1].

على أنَّ فكرة اليوم الآخر التي تحوم حولها السورة المباركة فضلاً عن غيرها من السور المباركة لكنَّها في هذه السورة تستهدف ربط هذه الفكرة بحادثة مهمَّة في التاريخ هي حادثة الغدير التي حصل فيها العذاب للمكذّب لولاية أمير المؤمنين التي بلّغ بها النبي الكريمﷺ بطلب وأمر شديدين من البارئ عزَّ وجلَّ، وهو طرح ثانوي يرتبط بقضيَّة عروج الملائكة ونشاطاتهم التي أُوكلوا إليها[2].

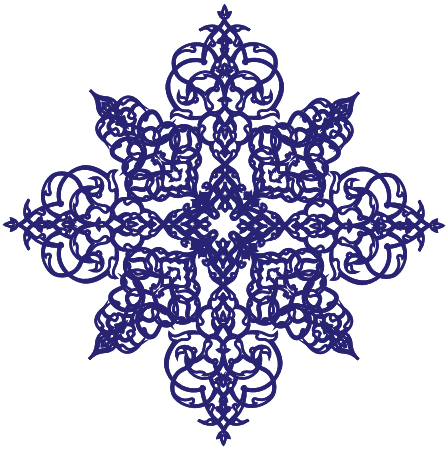

(١) سورة الدخان، الآية: ٥٥.

(٢) ينظر: التفسير البنائي للقرآن الكريم، د. محمود البستاني: ٥/ ١١٦.

الخاتمة

في آية التبليغ جاء الخطاب مختلفاً عن خطابه النبيَّ بقوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ...﴾ الذي تكرر كثيراً في القرآن الكريم، فالخطاب الأوَّل أهم، إذ يدلُّ على الأهميَّة الفائقة الذي استلزم أنْ يقع الرسول الأكرم مورداً للخطاب الإلهي مباشرة، ثمَّ إنَّ كلمة ﴿بَلِّغْ﴾ التي لم ترد إلَّا في هذا الموضع تدلُّ على خصوصيَّة المضمون الذي تحمله الآية، فقد أُمر الرسول بتبليغ أَمر على درجة من الأهميَّة بحيث لو قصّر في تبليغه للناس لذهبت أتعاب ثلاث وعشرين سنة، وذلك مصداقه قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ فتبليغه كان ثقيلاً على النبيِّ ﷺ لخوفه من استنكاف الناس عن قبوله وإيذائهم له، إذ توعده الله وهدّده على ترك تبليغه، فإنَّه لا يقال مثل هذا التعبير إلَّا إذا كان الأمر ثقيلاً على من يُراد خطابه؛ لذا عصمه تعالى من الناس بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ على أنَّ مجيء الفعل مشدداً ﴿بَلِّغْ﴾ أبلغ من تعديته بالهمزة (أبلغ)، وقد خاطبه بالرسالة لكونه أنسب الصفات إلى ما تتضمنه الآية من الأمر بالتبليغ لحكم الله النازل، فهو كالبرهان على وجوب تبليغ هذا الأمر الإلهيِّ، فتحمُّل الرسالة يفرض عليه القيام بالتبليغ، ولم يصرِّح باسم الذي أُنزل إليه من ربِّه، وإنَّما عبر عنه بالنعت، وإنَّه شيء أُنزل إليه إشعاراً بتعظيمه ودلالة على أنَّه أمر ليس فيه لرسول الله ﷺ صنع، ولا له من أمره شيء، ليكون برهاناً آخر على عدم الاختيار منه في كتمانه وتأخير تبليغه، ويكون معذوراً في إظهاره على الناس، وتلويحاً إلى أنَّه مصيبٌ في تفرسه منهم، وتخوفه عليه، وإيماءً إلى

أنَّه ممَّا يجب أنْ يظهر من ناحيته وبلسانه وبيانه.

وفي آية إكمال الدين يؤثر التعبير القرآني تقديم كلمة (اليوم) مرتين في سياق الآيتين، للدلالة على تعظيم أمر اليوم لاشتماله على خبر عظيم الجدوى، وهو يأس الكافرين من دين المؤمنين، وإكمال الدين وإتمام النعمة، فالآيتان مسوقتان لغرض واحد يتفرع إلى فرعين الأَوَّل: هو تقرير بأنَّ الكفار قد يئسوا من أنْ يستطيعوا تدمير الإسلام، ومِنْ ثَمَّ فلم يعد هناك مبرر لخشيتهم على الإسلام من هذه الجهة، على أنَّ الأمر الإلهيَّ بخشيته سبحانه هو الضمانة الأكيدة لاستمرار النصر الإلهيِّ على الكافرين، والثاني هو إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الله سبحانه بالإسلام لنا ديناً، وهنا أيضاً ليس هناك شيء جديد، غير إمامة عليٍّ وأولاده عليهم السلام، يستدعي أنْ يبشرنا الله تعالى أنَّه به قد أكمل دينه وأتمَّ نعمته ورضي لنا الإسلام ديناً، بل إنَّ قوله: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ليس يعني سوى أنَّ الإسلام لا يتمُّ إلَّا بإمامة الاثني عشر عليهم السلام، وإلَّا لكان الله تعالى قد رضي لنا الإسلام قبل ذلك، وهذا يؤكد ما تذهب إليه الشيعة الإماميَّة الاثني عشريَّة من أنَّ الإمامة أَصل من أُصول الدين؛ لأنَّ بهذه الإمامة رضي الله الإسلام ديناً كاملاً، ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾، فكأنَّ الدين كان ناقصاً فتمَّ بإعلان إمامة الاثني عشر عليهم السلام في يوم الغدير السَّعيد.

وفي آية السائل لم يبقَ شك في بعض النفوس من خطورة الأمر وإطلاقه للجميع ووجوب عدم معارضته ولزوم الخضوع له، جاء جابر بن النضر أو الحارث بن النعمان أو النعمان بن الحارث الفهري وقال ما قال، وأجابه النبيُّ صلى الله عليه وآله بما أجاب، فاستكبر المرتد، فدعا وتحدّى، فقتله الله في الحال، فالحمد لله ربِّ العالمين على إكمال الدين وإتمام النعمة.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. الأمالي، الشيخ الصدوق، ط١، تح: قسم الدراسات الإسلاميَّة، مؤسسة البعثة، قم، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، ١٤١٧هـ.

٣. الأمالي، الشيخ الطوسي، ط١، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميَّة، مؤسسة البعثة، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، قم، ١٤١٤هـ.

٤. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مكتبة أهل البيت، (د. ت).

٥. آيات العقائد، آية الله السيد إبراهيم الحجازي، تح: رامين الكلمكاني، ط١، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للآستانة الرضوية المقدَّسة، مجمع البحوث الإسلاميَّة، مشهد، ١٤٢٤ق – ١٣٨٢ش.

٦. آيات الولاية في القرآن، آية الله العظمى ناصر مكارم الشيرازي، ط١، مطبعة سليمان زاده، مدرسة الإمام عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام، ١٤٢٥ق –١٣٨٣ش.

٧. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، تح: يحيى العابدي الزنجاني، السيد كاظم الموسوي الياموي، مؤسسة الوفاء، بيروت – لبنان، ط ٢، ١٤٠٣ – ١٩٨٣م.

٨. التفسير البنائي للقرآن الكريم، د. محمود البستاني، ط١، مؤسسة الطبع التابعة للآستانة الرضويَّة المقدَّسة، مجمع البحوث الإسلاميَّة، مشهد، ١٤٢٤ق – ١٣٨٢ش.

٩. تفسير البيضاوي، البيضاوي، دار الفكر، بيروت – لبنان، (د. ت).

١٠. تفسير الثعلبي، الثعلبي، تح: الإمام أبي محمَّد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأُستاذ نظير الساعدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢م.

١١. تفسير مقاتل بن سليمان، مقاتل بن سليمان، تح: أحمد فريد، ط١، دار الكتب العلمية،

لبنان – بيروت، ١٤٢٤ – ٢٠٠٣م.
١٢. تفسير نور الثقلين، الشيخ الحويزي، تح: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، ط ٤، مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم، ١٤١٢هـ – ١٣٧٠ ش.
١٣. جامع البيان، محمَّد بن جرير الطبري، تح: الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٤١٥ – ١٩٩٥م.
١٤. الدر المنثور، جلال الدين السيوطي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، (د. ت).
١٥. الغدير، الشيخ الأميني، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ١٣٩٧ – ١٩٧٧م.
١٦. كتاب سليم بن قيس، تح: محمَّد باقر الأنصاري، مكتبة أهل البيت، (د. ت).
١٧. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، عباس ومحمّد محمود الحلبي، ١٣٨٥ – ١٩٦٦ م.
١٨. مفاتيح الغيب، الرازي، مكتبة أهل البيت (د. ت).
١٩. مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، محمَّد بن سليمان الكوفي، تح: الشيخ محمَّد باقر المحمودي، ط١، مطبعة: النهضة، مجمع إحياء الثقافة الإسلاميَّة، قم المقدَّسة، محرَّم الحرام ١٤١٢هـ.
٢٠. موسوعة الغدير في الكتاب والسُّنَّة والأدب، العلامة الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، تح: مركز الغدير للدراسات الإسلاميَّة، إشراف السيد محمود الهاشمي الشاهرودي، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي، ١٤٢٦ق – ٢٠٠٦م – ١٣٨٥ش.
٢١. الميزان في تفسير القرآن، العلامة السَّيد محمَّد حسين الطباطبائي، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.
٢٢. آيات العقائد، آية الله السيد إبراهيم الحجازي، تح: رامين الكلمكاني، ط١، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للآستانة الرضوية المقدسة، مشهد، مجمع البحوث الإسلاميَّة، ١٤٢٤ق – ١٣٧٧ش.
٢٣. موسوعة الغدير في الكتاب والسُّنَّة والأدب، العلامة الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، تح: مركز الغدير للدراسات الإسلاميَّة، ط٤، مؤسسة دار معارف الفقه الإسلامي، قم المقدَّسة، إيران، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٩م.

قال رسول الله
من صلى عليه واحدة صلى الله عليه بها عشرا
١٤٣٩
الشرفاوي